مختبر التربية الجامعية التابع لجامعة القدّيس يوسف - بيروت*

ندى مغيزل نصر[1]

ملخّص

تعرض هذه المداخلة لهيكل مؤسّساتي مبتكر في حقل البيداغوجيا الجامعية يتمثّل في مختبر البيداغوجيا الجامعية التابع لكلّية العلوم التربوية لدى جامعة القديس يوسف – بيروت.

تنقسم المداخلة إلى ثلاثة أجزاء: 1) استعراض سريع للتحدّيات التي تواجه التعليم العالي وانعكاساتها على البيداغوجيا الجامعية، وهي تحدّيات تسوّغ إنشاء المختبر، 2) تقديم الهيكل وتسليط الضوء على طابعه الابتكاري. يضمّ المختبر ممثّلين عن جميع المؤسّسات والكلّيات والمعاهد التابعة لجامعة القديس يوسف ويعمل فيه أشخاص متعدّدو الاختصاصات على مستوى مشاريع مشتركة في حقل البيداغوجيا الجامعية. يشكّل المختبر منصّةً جامعة تنتهج مقاربة تشاركية، ما سمح لأعضاء أسرة جامعة القدّيس يوسف بصياغة مجالات الابتكار التربوية وتملّكها ووضعها موضع التنفيذ. 3) أفكار مستوحاة من الهيكل: وهي تتعلّق بنظام عمل الهيكل كـ«منظّمة متعلّمة». في هذا السياق، سيتم تحليل المختبر تبعاً لسمات هذا المفهوم المستمد من علم الإدارة وعلم النفس الاجتماعي للمنظّمات وهو ذو فائدة في حقل البيداغوجيا الجامعية.

سأعطي في هذه المداخلة[2] لمحةً عن مختبر التربية الجامعية لدى جامعة القديس يوسف في بيروت، وهو جهاز مؤسّساتي خاصّ، من أجل طرح مجالات للتفكير يمكن استثمارها ضمن أطر جامعية أخرى.

تنقسم المداخلة إلى ثلاثة أجزاء:

---

* مترجم عن الفرنسية

[1] ندى مغيزل نصر، أستاذة، عميدة كلّية العلوم التربوية في جامعة القديس يوسف، بيروت، حائزة على دكتوراه في علوم التربية من جامعة رينيه ديكارت، باريس V، 1981. البريد الإلكتروني: nada.moghaizel-nasr@usj.edu.lb

[2] عرضت نواة هذا النصّ خلال المنتدى الذي نظّمته الجامعة الأنطونية بعنوان «أي تربية جامعية في السياق المتوسّطي والأميركي الحالي» وذلك من 15 إلى 18 كانون الأول/ديسمبر 2008.

سأبدأ باستعراض التحدّيات التي يواجهها التعليم العالي، بالإضافة إلى انعكاسات هذه التحدّيات على مستوى الجامعة، من أجل تبرير عملية إنشاء المختبر.
من ثمّ، سأقدّم المختبر وأسلّط الضوء على فرادته.
وفي الختام، سأطرح عليكم بعض الأفكار التي استلهمتها من طريقة عمل هذا المختبر، لكي يُتاح لنا تكرار هذه التجربة ضمن سياقات جامعيّة أخرى.

أوّلاً: التحدّيات وانعكاساتها

كثيرةٌ هي التحدّيات التي يواجهها التعليم الجامعي. سأكتفي بذكر خمسة منها:

- إرتفاع عدد الطلاب الجامعيين وتنوّع الجمهور.
- النفاذ الفردي إلى المعلومات بفضل تكنولوجيا المعلومات الجديدة.
- نموّ المعارف المطّرد.
- التعقيد المتزايد لقطاع العمل.
- بروز مفهوم الجودة في مجال التعليم الجامعي.

تتطلّب هذه التحدّيات مراجعة المناهج التعليمية من حيث المضمون والمقاربات وأساليب التعليم بهدف تطوير كفاءات عليا، تفكيريّة في المقام الأوّل، من شأنها أن تتيح العيش والإنتاج في مجتمع المعرفة.
بالتالي، تفرض هذه التحدّيات إعادة النظر في التربية الجامعية التي أضحت معيارًا من معايير الجودة والانتقال من نموذج التعليم إلى نموذج التعلّم.
في الكلمة التي ألقاها لمناسبة عيد القدّيس يوسف شفيع الجامعة في شهر آذار/مارس 2006، قال الرئيس البروفيسور رينيه شاموسي: «لا يجوز أن تتجاهل الجامعة الأساليب التي يلجأ إليها الطلاب لاكتساب المعرفة، ولا وجودهم ولا انطلاقهم في المجتمع (...)، فهذه مسألة تتعلّق بجودة جامعتنا وبتمايزها الذي علينا تحقيقه معاً».

ثانياً: التعريف بمختبر التربية الجامعية لدى جامعة القديس يوسف

تُرجِمَت رؤيا رئيس الجامعة أفعالاً خلال السنة الدراسية 2004-2005 مع إنشاء مختبر للتربية الجامعية في جامعة القديس يوسف، بالإضافة إلى وحدة تكنولوجيا التعليم الجديدة التابعة لكلّية علوم التربية.
ولم تنتظر جامعة القدّيس يوسف إنشاء هذا المختبر لتطوّر التربية الجامعية في حرمها. فقد كان لكليّة الطبّ منذ سنوات كثيرة دور ريادي في هذا المجال. أمّا الآن، فيُعتَبر سعي الجامعة إلى الارتقاء باختصاصاتها جزءًا من مشروعها الساعي إلى التمايز والذي يتكافل في تحقيقه المجتمع الجامعي بأسره. وليس المختبر سوى جهاز لوضع هذه الإرادة في إطارٍ مؤسّساتي وتشغيلي.

1. المهمّة

يسعى المختبر إلى تطوير الممارسات التربوية في الجامعة بهدف تعزيز امتياز التعليم.

2. تصميم المختبر وفرادته

تكمن فرادة هذا المختبر في أنّه يجمع ممثّلين من جميع المؤسّسات التابعة لجامعة القديس يوسف، أي الكلّيات والمعاهد.

والمختبر كناية عن منصّة جامعة تعتمد مقاربةً تشاركيّة.

هذا هو برأيي جوهر الفرادة التي يتّسم بها هذا الهيكل وما يميّزه عن غيره من الهياكل التربوية الجامعية في العالم. ففي معظم الجامعات، يتمّ إنشاء كيان للتربية الجامعية تابع لرئاسة الجامعة أو لإحدى مؤسّساتها، أو كيان يتمتّع باستقلالية تامّة. وغالباً ما يضمّ هذا الهيكل أشخاصاً لا يمثّلون بالضرورة مؤسّسات الجامعة المعنية.

أما جامعة القدّيس يوسف فقد اختارت تشكيل لجنة من «الخبراء الأقران – السابقين» وهو تعبير جميل أوجده فيليب ميريو، تتألّف من أساتذة يمثّلون مؤسّساتهم في المختبر ويضطلع كلٌّ منهم بدور المندوب الذي يرسّخ عمل المختبر في مؤسّسته. وعليه، يضمّ مختبر التربية الجامعية أساتذة من اختصاصات ومؤسّسات مختلفة.

ليست هذه الفرادة مجرّد إضافة شكليّة، بل هي أداةٌ قيّمة أتاحت لأعضاء مجتمعنا الجامعي فرصة التعارف في المقام الأوّل، ومن ثمّ امتلاك الابتكارات التربوية والمشاركة في بلورتها وتبادلها وتطبيقها. ساهمت هذه المقاربة التشاركية بين أفراد ومؤسّسات من مجالات اختصاص مختلفة في تطوير ثقافة مشتركة للتعلّم في جامعتنا.

3. الأهداف

تقضي أحد الأهداف الرئيسية بتوفير إطار:

- للتفكير في إشكاليات تربوية مختلفة،
- لإضفاء الانسجام بين التصوّرات والممارسات،
- لتشارك الممارسات الابتكارية ونشرها،
- للدعم التربوي الموجّه إلى الأساتذة الجامعيين،
- للتدريب المتواصل الموجّه إلى الأساتذة.

4. الأنشطة

كثيرة هي نشاطات هذا المختبر الحديث النشأة:

سأخصّ بالذكر بعض الأنشطة التي تمّ إنجازها منذ تأسيس المختبر عام 2004-2005 إلى اليوم لتوضيح مقاربته وأعماله:

أ. أنشطة تتناول أعمال الطلاب الفرديّة

تشكّل أعمال الطلاب الفرديّة جزءًا لا يتجزّأ من التدريس في إطار نظام الأرصدة الأوروبي الذي اعتمدته جامعة القديس يوسف وغيرها من الجامعات.

أجرِيَت دراسة في العمق حول أعمال الطلاب الفرديّة الخاضعة للمراقبة:

- استطلاع آراء المسؤولين عن المؤسّسات التابعة لجامعة القدّيس يوسف والأساتذة والطلّاب سمح برسم صورة عن الوضع الراهن وبتسليط الضوء على التصوّرات والمعوّقات والحلول المطروحة لمواجهتها بالإضافة إلى الممارسات الابتكارية في هذا المجال.
- تنظيم يومين للتأمّل، لسنتين متتاليتين، في نتائج هذا البحث، وذلك في إطار ورش عمل جمعت الأساتذة والجهات المسؤولة عن المؤسّسات.
- صياغة وثيقة مرجعية حول هذا الموضوع بالإضافة إلى وثيقة تنصّ على التدابير الواجب اتخاذها وزِّعَتا على العمداء والمدراء.
- يتوقّع إعداد مشروع بحثي حول الجدوى التربوية وفعالية الأعمال الفرديّة المراقبة (وهي مطلوبة في جميع المقررات بحسب النظام الأوروبي لتجميع الأرصدة ونقلها) بالنسبة إلى تعزيز استقلالية الطلاب الجامعيين وتطوير المعارف والكفاءات المطلوبة.

ب. أنشطة حول مواكبة الطلاب والتوجيه

- تأمّل نظري في مفهوم التوجيه لكشف أبعاده وآليات تطبيقه وجدواه التربوية.
- دراسة واقع الممارسات المعتمدة في مجال المواكبة التربوية لدى كلّيات ومعاهد جامعة القدّيس يوسف.
- تنظيم ثلاثة أيّام تربوية على شكل ورش عمل حول مسألة المواكبة التربوية للطلاب والتوجيه في التعليم الجامعي بمشاركة المسؤولين في المؤسّسات والهيئة التعليمية في جامعة القديس يوسف.

ج. أنشطة حول تقييم الطلاب للدروس

- وضع المختبر وثيقةً تلحظ إجراءات وجدولاً ليقيّم الطلاب برامج التعليم بالإضافة إلى جدول للاطّلاع على رأي الأساتذة في ما يتعلّق بتقييم دروسهم.
- أجريت دراسة حول تطبيق هذا الإجراء، ما سمح بتقييمه وتحسينه.
- سمح منتدى إلكتروني لمناقشة التقييم باستكمال عملية التأمّل.

د. أنشطة تدريب أساتذة الجامعة

- إنشاء مرصد في المختبر للوقوف على حاجات أساتذة جامعة القدّيس يوسف في مجال التدريب ولمواكبة التطوّر المحرز، ورصد الموارد البشريّة والابتكارات المتوفّرة في المؤسّسات في مجال التربية الجامعية، بالإضافة إلى البنى الجديدة الرامية إلى تطوير المنهجيات التربوية في مختلف المؤسّسات التابعة لجامعة القديس يوسف.
- تنظيم يوم للتعرّف إلى مقاربات التعليم الفاعلة حيث اجتمع الأساتذة في إطار ورش عمل للتدرّب على مقاربات تعليمية فاعلة مختلفة.
- توفير دورات تدريبية للهيئة التعليمية في الجامعة بمشاركة أكثر من 400 أستاذ في غضون ثلاث سنوات.

- أسفر هذا المسار عن شهادة جامعية في التربية الجامعية مفتوحة أمام جميع أساتذة التعليم العالي. دخل هذا البرنامج حيّز التنفيذ منذ السنة الدراسية 2008 - 2009. يضمّ حاليّاً 17 مشتركاً، علماً أنّه أنشِئَ وفقًا للمنهجية التشاركية نفسها، وهو يجمع أساتذة من مؤسّسات جامعة القديس يوسف المختلفة وحّدوا خبراتهم لإنجاز هذا المشروع المشترك. وقد استقوا أفكارهم من برامج تدريب أخرى مطبّقة في أنحاء العالم كيّفوها لتلائم حاجاتنا.

كان هذا العمل التحضيري ذا طبيعة تدريبية بحدّ ذاته، إذ تطلّب تأمّلاً عميقًا ومشتركًا في عمليّة التعليم والتعلّم في القرن الحادي والعشرين. لذا، كان لا بد من وضع مرجعية لكفاءات الأستاذ الجامعي بما يتوافق مع واقعنا، ثمّ تحديد أهداف وترجمتها بصورة مواد ومحاور وأساليب تعليمية ومقاربات للتقييم والمصادقة. كما وجب تصميم أدوات للتفكير والتوحيد. وقد اكتسب أعضاء اللجنة التحضيرية الكثير من هذا العمل التحضيري، إذ انكبّوا على المطالعات والبحوث والابتكارات لبلوغ مستوى التمهين الذي يطمح إليه هذا المنهاج.

تشهد عمليات التقييم التي أجراها المشاركون إلى اليوم على أثر هذا التدريب المُجيز على ممارساتهم التعليمية وهذا واضح من خلال الحصص الدراسية التي تمّ تصويرها.

هـ. أنشطة حول الوثائق التربوية الرقمية

بُذِلَت جهود استثنائية لتعزيز تطبيق التكنولوجيا الحديثة في مجال التعليم الجامعي، أي جهود توعية ودعم لمؤسّسات جامعة القديس يوسف في ما يتعلّق باستخدام الدعائم المرئية والمسموعة والرقمية في الإطار التربوي، وجهود تدريبية:

- أجرِيَت دراسة شملت الأساتذة والطلاب حول استخدام التكنولوجيا الحديثة في الإطار الأكاديمي. سيتمّ تحديث هذه الدراسة بانتظام. كما أنشِئَ فضاء إلكتروني للتعبير عن الآراء بصيغة التغذية الارتجاعية يسمح بتحديث المعلومات المحصّلة بانتظام.
- نظّمت وحدة تكنولوجيا التعليم الجديدة التابعة لكلّية العلوم التربوية دورات تدريبية عديدة حول استخدام برمجية «مودل» (Moodle) المخصّصة لبيئة التعلّم الرقمية في الجامعة.
- يتمّ حاليّاً التحضير لإنشاء مخزون للموارد الرقمية بهدف توفير فضاء إلكتروني للأسرة العلمية الجامعية يساهم في نشر وتبادل وتثمين المضمون التربوي والبحثي الصادر عن جامعة القديس يوسف.
- نُظّم مهرجان «مودل» من أجل إحاطة المجتمع الجامعي علماً بفوائد استخدام التكنولوجيا الحديثة في التعليم وإدارة المسائل الأكاديمية.
- وضِعت برمجية مضادة للسرقة الأدبية، ونظّمت ورش تدريب توفّر للأساتذة والطلاب تدريباً على المسائل الخلقية والفنّية.
- يجري حاليّاً إعداد كتاب أبيض حول التعليم عن بعد (شبه الحضوري أو غير الحضوري) في جامعة القديس يوسف. يشمل الكتاب تقريراً عن واقع الحال بالإضافة إلى إجراءات توفّق بين المسائل التربوية والفنّية والإدارية.
- يتم إعداد موقع إلكتروني سيكون بمثابة «مرجعيّة» للممارسات التربوية الابتكارية في جامعة القدّيس يوسف. ستصدر هذه الممارسات بصورة رسمية على شكل «دليل» يستعرض التجارب السابقة والمتطلّبات التربوية والفنّية، ويذكر بشكل خاصّ الأشخاص المؤهّلين لتبادلها.

- تنظّم سلسلة من المؤتمرات عبر الأثير داخل حرم الجامعة منذ شهر آذار/مارس 2009 لإبراز نتاج الأساتذة العلمي في جامعة القديس يوسف.

و. أنشطة حول الأخلاقيات في التعليم العالي

- إستشراف المسائل المتعلّقة بالأخلاقيات في المؤسّسات التابعة لجامعة القديس يوسف.
- تأمّل حول هذا الموضوع في مختبر التربية الجامعية.

ز. أنشطة البحث

- تمّ جمع بيانات عن التربية الجامعية وأبعادها المختلفة بهدف وضع «خريطة مفهومية» تسمح بـ:
  - توجيه عملية بناء قاعدة للمراجع والبيانات الرقمية حول الموضوع ضمن مختبر التربية الجامعية.
  - توضيح المواضيع المنضوية تحت «التربية الجامعية» وتوجيه اختيار إشكاليات البحث والعمل و/أو التدريب في مختبر التربية الجامعية.
  - تحديد الأبعاد السياسية والاستراتيجية التي يجب التعمّق فيها و/أو تطويرها.
- تمّ تطوير مشروع بحث في إطار برامج «تامبوس» ينقسم إلى شقّين:
  - تقييم نتائج مختبر التربية الجامعية وتأثيره على الجامعة.
  - دراسة حاجات المؤسّسات التابعة لجامعة القديس يوسف الراغبة في إنشاء «خلية تربية جامعية»، ومواكبة هذه المؤسّسات في إنجاز هذه العملية.
- من المتوقّع استمزاج آراء طلاب جامعة القديس يوسف في ما يتعلّق بأثر تكنولوجيا المعلومات والاتصالات في مجال التعليم على جودة الإعداد الجامعي والعلاقة التربوية بين الأساتذة والطلاب.

ثالثاً: الأفكار المستوحاة من عمل مختبر التربية الجامعية:

1. الدروس المستفادة من هذه التجربة:

تعلّمتُ الكثير من تجربة مختبر التربية الجامعية.

إذ تعلّمتُ، من بين أمور أخرى، أنّ الابتكارات التربوية في القطاع الجامعي ولربّما في جميع القطاعات تتحقّق من خلال الاستدامة والمشاركة وبالتعاون مع شركاء متنوّعين.

- علّمتني هذه التجربة أنّ إيقاع المؤسّسات لا يوازي إيقاع مجموعة من الأفراد المتحمّسين، بل هذه المجموعة هي التي تجذب الآخرين إذا ما احترمت إيقاعهم الخاصّ ومفهومَي «الاستمرارية» و«الانقطاع» اللذين يتغنّى بهما إيتار (Itard).

  تعلّمت أهمّية احترام ما يصنعه الآخرون وما يعرفون صنعه لإدخال بعض التعديلات الطفيفة عليه على أن تكون هذه التعديلات ضمن «مساحة التطوّر الأقرب إليهم»، على حد قول فيغوتسكي (Vygotsky)، وهذا يعني انتهاج مقاربة تدريجيّة وعلى مراحل حرصاً على مشاعر الآخرين وعدم حرق المراحل تفادياً لاندلاع المشاكل.
- علّمتني هذه التجربة أنّ المقاربة التشاركية وحدها تسمح بإحراز التقدّم وبإدماج الأفراد والمؤسّسات، وأنّه من الضروري أن يشعر هؤلاء بأنّهم معنيّون بالقرارات المتخذة ليتمكّنوا من دعمها وتنفيذها، وأن يشعروا بأنّ صوتهم لقي آذانًا صاغية وأنّ رأيهم أُخِذ بعين الاعتبار.

صدق لا فونتين في قوله: «لا داعي للعجلة...»، فقد تودي بنا العجلة إلى أن نكون وحيدين أو تتسبّب بتقليص عددنا أو تمنعنا من بلوغ أهدافنا.

- علّمتني هذه التجربة أهمّية التعاون مع زملاء من اختصاصات ومؤسّسات مختلفة فنقف على مسافة من ممارساتنا لنعيد النظر فيها ونشكّك في قناعاتنا.

في الواقع، علّمتني هذه التجربة ضرورة أن نعمل كمنظّمة متعلّمة في مجال يتعاطى مع أساتذة في مرحلة التعليم العالي. فلا بد من استثمار هذا المفهوم المستوحى من الإدارة وعلم النفس الاجتماعي في المنظّمات في ميدان الابتكار الجامعي.

2. خصائص المنظّمة المتعلّمة

تعدّدت الكتابات حول هذا المفهوم ومفادها أنّ المنظّمة المتعلّمة هي منظّمة:

أ. تعمل وفقاً لديناميكية مشروع وتتيح لفاعليها أن يبنوا معاً مشروعاً جماعياً. نشهد في مختبر التربية الجامعية على أنّ ديناميكية المشروع هذه، إلى جانب عملية البناء الجماعي التي تشمل المسؤولين في المؤسّسات والأساتذة والطلاب، تساهم في الإعداد بحدّ ذاتها وتفترض مشاركة الأسرة الجامعية لأنّها تعطي دليلاً قاطعاً على أنّ المشاريع الكبرى تنضج على نار هادئة، ولا شيء مُطلق أو محدّد سلفاً، بل الأفراد خبراء في عملهم ولو بصورة ضمنية، وهم قادرون على الارتقاء بالفكر والممارسة.

ب. تحفّز أعضاءها وتتيح لهم التجدّد المستمرّ (Paquay, 2005). يشعر الأفراد والمؤسّسات المعنية بالتشجيع لأنّهم يتولّون التصميم والتشغيل بأنفسهم عوضاً من تنفيذ مقرّرات الغير.

ج. تخضع ممارساتها للمساءلة المستمرّة، فتحلّل إخفاقاتها ونجاحاتها وتجري التعديلات اللازمة. إنّ طبيعة هذه المنهجية التشاركية هي التي تضع المختبر والمشاركين فيه وبالتالي، المؤسّسات الممثّلة فيه، في موقع التفكير والتأمّل.

ويفترض ذلك حسب ليوبولد باكي:

أ. تشارك المبادئ والقيم، وبشكل خاصّ القناعة بأنّ المتعلّمين قادرون على اكتساب معارف رفيعة المستوى وبأنّ أساتذتهم سيمدّون لهم يد العون في هذا المجال. فالمقاربة التشاركية تشكّل بحدّ ذاتها أداة لبناء منظومة قيم مشتركة يحتلّ فيها الطالب مكانةً مركزية لأنّ هذا المختبر يسعى في المقام الأوّل إلى تحسين نوعية التعليم المقدّم له.

ب. التركيز على تعلّم المتعلّمين: تركّز المناقشات ومشاريع الأساتذة على نشاطات تعلّم المتعلّمين. تقع هذه المسألة في صلب مهمّة المختبر.

ج. عدم احتكار الممارسات: يتباحث الأساتذة في ممارستهم التربوية بكلّ جرأة وشفافية، فيتبادلون الآراء حول مقارباتهم وأساليبهم ما يشكّل وسيلةً مميّزة تتيح لكل واحد منهم تحسين ممارساته الخاصّة. تربط أعضاء المختبر علاقة ندّية حيث يعتبر كلٌّ واحد منهم الآخرين أقراناً له. بالتالي، تراهم يعملون في ظروفٍ تحثّهم من حيث البنية على عدم احتكار ممارسات المؤسّسات المختلفة وعلى تبادل الهواجس والحلول المطروحة.

د. التعاون: يتشارك الأساتذة في تحضير المواد وأدوات التعليم والتقييم كما يتبادلون المعلومات (...) ويعدّون المشاريع من خلال عملهم كفريق (...). على سبيل المثال، وضع مختبر التربية

الجامعية جدولاً لتقييم الدروس إلكترونياً على مستوى جامعة القديس يوسف. يقضي هذا العمل بتحديد المعايير ومؤشّرات تقييم الدروس وقد دفعنا بطريقة ضمنية وغير مباشرة إلى التفكير في عملية التعلّم والتعليم في جامعتنا وبالتالي، إلى رسم الخطوط العريضة للتصوّرات المشتركة.

هـ. الحوار التأمّلي: يقوم أعضاء الفريق التعليمي من خلال التعاون (...) بتحليل وتقييم ممارساتهم وطريقة عمل مؤسّستهم. كما سبق وذكرنا، يعمل أعضاء مختبر التربية الجامعية ضمن لجان متعدّدة الاختصاصات، كما يعقدون جمعيّات عامّة. يسمح هذا التنظيم بإرساء بنية للحوار التأمّلي.

3. الأبعاد الواجب احترامها

لا بد لثقافة المنظمّة المتعلّمة أن تأخذ بأبعاد عديدة وذلك على حد قول أندرسون وتييسن (كما ورد في لوسار وترديف Lessard et Tardif, 2005):

أ. البعد الاجتماعي: التفاعل بين الأعضاء، وبين هؤلاء والبيئة الجامعية.

ب. البعد النفسي: وهو يشمل تطوير هويّة مهنيّة والشعور بالقدرة للسيطرة على سير الأمور.

ج. البعد الفلسفي: وهو يشمل حواراً مهنياً متواصلاً حول القيم والأهداف الخاصّة بمشروع الجامعة.

د. البعد السياسي: سلطة جماعية تعمل من خلال مشاركة شاملة تتخطّى حدود الحلقات الإدارية.

هـ. البعد التاريخي: تكوين ذاكرة مشتركة وتاريخ صريح للتغيّرات.

و. البعد الاستراتيجي: الالتزام الطوعي بالتغيير من خلال التعاون والإدماج.

إذا كانت المدارس مدعوّة إلى العمل كمنظمّات متعلّمة، فإنّ هذا الأمر يُعدّ ضرورةً بالنسبة إلى الجامعات. في حديث عن تمهين التعليم، يقول فيليب بيرونو (Perrenoud, 2003) إنّ هذه العملية «تُبنى» و«لا يتم تقريرها» و«تتطلّب عملاً جماعيّاً». ويضيف أنّ الأساتذة نفسهم «يصنعون مهنتهم».

توفّر الهياكل كالتي أتيت على ذكرها إطاراً لبناء هذه الهويّة المهنية التي تتجّه نحو الاحتراف التمهيني في مختلف أنحاء العالم.

تتيح هذه المقاربة التشاركية التي تحدث تغييرات عند مستوى الاحترافات التمهينية (Paquay, 2005) للمرء فرصة التشبّع من تجاربالآخرين لإيجاد الحلول الأكثر ملاءمةً بالنسبة إلى البيئة التي ينتمي إليها.

كما تؤثّر هذه المقاربة على جودة التعليم. فإذا نقلنا مقولة فيليب ميريو وطبّقناها على السياق الجامعي، جاز القول: «لا يتعلّم الطالب إلا إذا تعلم الأستاذ وكذلك الجامعة».

تضمن هذه المقاربة استمرارية نشاط المؤسّسات بفعل خضوعها لمساءلة دائمة، كما تحفّز الأفراد بشكل مستمرّ وتغذّي ذكاءهم من خلال عملهم التعليمي لأنّه في تلاقي الأدمغة واختلافاتها قوّة وحكمة.

4. حدود تجربة مختبر التربية الجامعية

تعاني هذه التجربة، على غناها، من بعض الثغرات. سأذكر بعضها:

- لجامعتنا تاريخٌ أكاديمي وقد حاولت على مرّ السنين إضفاء طابع مؤسّساتي على عملها، وما

زالت هذه العملية جارية إذ لم تباشر سوى في السبعينيات. بالتالي، تتمتّع المؤسّسات على اختلافها باستقلالية واسعة وبتنوّع من حيث الممارسات، ما يصعّب ويبّطئ وتيرة عملية إضفاء الانسجام على الممارسات التربوية.

- لم تتطوّر مؤسّسات جامعتنا المختلفة بالوتيرة نفسها من حيث التوعية حول المسائل التربوية والممارسات التعليمية. فكلّية الطبّ، شأنها في ذلك شأن نظيراتها حول العالم، اضطلعت بدور ريادي في إدراك ضرورة تدريب أساتذتها وخصّصت الموارد الماليّة اللازمة لهذا الغرض. وتزوّدت بعض المؤسّسات بخلية للتربية الجامعية ما يتيح لها «تبنّي» التدابير التي يدعو إليها مختبر التربية الجامعية ووضعها حيّز التنفيذ. في المقابل، تفتقر مؤسّسات أخرى إلى هكذا جهاز، ما يبطّئ لا بل يعيق عملية تطبيق تلك التدابير. كما يتسبّب هذا الواقع بتفاوت في مستويات استثمار المؤسّسات المختلفة.
- لا يتمتّع المختبر بأي سلطة لاتّخاذ القرارات. بالتالي، تُناط ترجمة نتائج الدراسات إلى أفعال بالمسؤولين عن المؤسّسات. كما يفتقر المختبر إلى السلطة الإلزامية، ذلك أنّ تفعيل التدابير رهن بموقع الممثّل في مؤسّسته وبتوعية المسؤولين.
- تبقى أيضاً مسألة التدابير المالية والقانونية في ما يتعلّق بسياسات الموارد البشرية لتثمين الاستثمار لدى الأساتذة الذين يخضعون لتدريب تربوي ويحدّثون ممارساتهم أو الذين يكرّسون أنفسهم للعمل في المختبر.

إلا أنّ هذه المعوّقات تحفّز فكر أعضاء المختبر لتخطّيها وذلك بتضافر الجهود لأنّ العمل المشترك هو بحدّ ذاته علّة وجود المختبر.

المراجع

Lessard, Claude, Tardif, Maurice (2005). *La profession d'enseignant aujourd'hui*, Bruxelles: De Boeck.

Paquay, Léopold (2005). Devenir des enseignants et formateurs professionnels dans une organisation apprenante? De l'utopie à la réalité. *European journal of teacher education* 28 (2).

Perrenoud, Philippe (2003). *Développer la pratique réflexive dans le métier d'enseignant*. Paris: ESF.